روايات الحرب اللبنانية

"قلعة الأسطة"

سمر روحي الفيصل

تحاول رواية « قلعة الأسطة »[1] لليلى عسيران تقديم وجهة نظر وطنية لبنانية في قضية الحرب الأهلية. وهي بذلك تعالج نقطة لم تلتفت إليها روايات الحرب اللبنانية السابقة، ما عدا قمر كيلاني في رواية « بستان الكرز »[2]، على ما بين الروايتين من تفاوت في معالجة موضوع الانتماء إلى لبنان. نحن هنا أمام انتماء رومنتي[3] للبنان في وجهه الوطني، وتعاطف مع الفلسطينيين، ودغدغة لينة للمسؤولين اللبنانيين عن الحرب واستمرار ويلاتها. والواضح أن الرواية تترجح بين هذا كله، فتضرب على أوتار عديدة، ولكنها تخفق في عزف نغمها الخاص المميز.

أما الجانب اللبناني الأصيل البريء، الذي لا يرى نفسه طرفاً في الحرب، فيجسّده منزل قديم الأبيض في حيّ القلعة « على حافة منحدر مقابل لمخيم جسر الباشا »[4]. إنه منزل تسكنه أسرة لبنانية برجوازية متعاطفة مع الفلسطينيين منذ نكسة حزيران. فقد ذهبت مريم - ربة المنزل - إلى غور الأردن، ووقفت « تطل على الأغوار، وهناك سمعت الصوت الدافىء، عاشت مع صاحب الحطة وحامل الهوية، ورأت كيف يرمي روحه غطاء حنان على أرضه المحتلة باتجاه النهر. وهناك استراحت من الحيرة ومن الرفض، استراحت من رفضها للسلاطين، ورفضها للزيف، ورفضها لوطن الحضارات المتعددة، وهناك وجدت إنسان الأرض قبل أن تجد في بيروت وطن الإنسان »[5]. ولا يختلف أمر تعاطف الأسرة مع الفلسطينيين بعد نشوب الحرب. فمريم محترمة جداً من قبل « أدهم » المسؤول الفلسطيني، هادئة، صبور، تواسي الآخرين وتمتص نقمتهم، وتوزع حاجاتها عليهم، وتعاونهم في توزيع المؤن، وتواسي جرحاهم في مستشفى تل الزعتر، وتترك باب منزلها مفتوحاً لهم على الدوام.

لقد استبعدت المؤلفة رب الأسرة من الرواية وجعلته عاجزاً عن الانضمام إلى أسرته، ولكنها استبقت مريم وابنها، والأسطة الخادم السوداني، وملكة الخادم، والمرافق « أبو سمير »، والسائق « محمد » وتركت لهؤلاء جميعاً فرصة الدوران في فلك مريم. فهم خدم طيّعون لها، وهي عطوف شفوق بارة بهم. أما الابن ففي طور النمو والاكتمال، تخاف أمه عليه ولكنها تضطر للانصياع له في بعض الأحايين.

إن منزل مريم لا يقع في المنطقة الفاصلة بين المتحاربين وحسب، بل هو رمز لصمود اللبنانيين الشرفاء من أمثال مريم. فهي بورجوازية ولكنها بريئة مما يجري، متعاطفة مع الفلسطينيين. وخدمها الفقراء مخلصون لهذا المنزل وصاحبته، حتى أن حياتهم تنتهي فيه دون أن يقبلوا الخروج منه، على الرغم من أن صاحبته قد غادرته والتحقت بأهلها في بيروت الأخرى، بيروت المدانة طوال الرواية، بيروت التي تقول مريم إن الحرب « لم تبدل المسافة بيننا وبين مسؤولينا، ربما لأنهم في مواقعهم لا يعانون مثلما نعاني، ربما لأنهم لم يقتربوا من أوجاع الأرض ولم يجرحوا بآسيها »[6]. هذا البيت اللبناني الصامد يقدره الفلسطينيون، ويتراكضون لتحذيره من الخطر، أو لتقديم المعونة له، أو لإقامة صلات أسرية مع سكانه. لقد راح المنزل يتهدم جزءاً إثر جزء، مشيراً بذلك إلى لبنان الكبير الذي شرع يتآكل بتأثير الحرب. وهو ما يزال على عهده مخلصاً للجانب الفلسطيني. ولا بد من القول إن الرواية تحرص طوال صفحاتها على التجول في أركان هذا المنزل وأشيائه، وعلى وصف صلة سكانه به، وبخاصة مريم التي كانت قادرة على النجاة بنفسها وبابنها، ولكنها لم تتخل عن بيتها على الرغم من أنها تتعذب « بين خيارين، إما الصمود في بيتها ومشاركة حيها في ويلات

(١) دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٩.
(٢) اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٨. ولتفصيل الحديث عن هذه الرواية انظر: ملامح في الرواية السورية - سمر روحي الفيصل - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٩.
(٣) يؤثر المرء كتابة « رومنتي » على هذه الصورة دون الصورتين الأخريين: رومانسي - رومانتي.
(٤) قلعة الأسطة - ص ١٦.
(٥) نفسه - ص ١٠.
(٦) نفسه - ص ٥٨.

الحرب، أو التمتع بامتيازاتها الخاصة في المنطقة الأخرى من بيروت، بين أهلها وذويها ومعارفها »[٧].

ويبدو الانتماء إلى لبنان في وجهه الوطني الأصيل واضحاً من الجهة الخاصة بمنزل مريم. فهذا المنزل يدين ممارسات المسؤولين أبناء الأسر الكبيرة المتنفذة التي وجّهت الحرب لصالحها على الرغم من أن أسرة مريم واحدة منها. وفي المقابل يقف سكان المنزل إلى جانب الفلسطينيين بعواطفهم وبمشاركاتهم العامة، ولكنهم- قبل أي شيء آخر- ينتمون إلى أنفسهم. فمريم تتحسس أجزاء منزلها، وتحزن لما يصيبه، وتألم للدمار الذي لحقه، ومن خلال ذلك تعي أن لصمودها معنى المقاومة، وأن انتظارها في المنزل له نكهة خاصة وتعبير قوي « وبالرغم من أن القتال كان يعم الجمهورية الآخذة بالتفكك كان لدينا يقين قاطع أن صمودنا وحده هو القادر على فك طلاسم الحرب وانتهائها على جميع الجبهات »[٨]، وفي تلك المرحلة « بدأت السيدة مريم تحكي للأسطة عن البيت وكأنها تصف إنساناً »[٩]. ولعل المؤلفة حين جعلت مريم تغادر منزلها إلى بيروت المدانة، وحين جعلت « محمد وأبو سمير والأسطة » يموتون فيه، تشير إلى أن المأساة الحقيقية تقع على رؤوس هذه الطبقة الفقيرة المخلصة للبنان، وإن كان هذا الأمر يشير من جهة أخرى إلى تخلي مريم عن انتمائها للبنان الوطني والتحاقها بلبنان في جانبه المدان. غير أن الإشارة إلى تناقض السياق الروائي في هذه النقطة تبدو ذات أهمية خاصة، لأن افتعال الأسباب لمغادرة المنزل، وافتعال الحرص على دوام الاتصال بمن استمروا يعيشون فيه، والقلق على مصيرهم، ومحاولة تخليصهم منه بعد أن وضح مصيره... هذا كله يقف على الطرف النقيض من دلالة المغادرة من الناحية الفكرية »[١٠]. ويناقض في الوقت نفسه ذلك التعاطف مع الفلسطينيين، لأن المغادرة تعني التخلي عن الصمود والهرب إلى الطرف الآمن، طرف من أدينوا من قبل. على أن الرواية تحاول منح مريم استقلالية في الرأي الخاص بالحرب، فتورد على لسان أدهم أنه « خبرها نقاشاً وعملاً، وكانت تبدي روحاً وطنية صافية، ولا تدخر سبيلاً للتعبير عنها. إلا أنه كثيراً ما كان ينصت إليها تعبر عن شكاوى جعلتها أقل استعداداً للعمل، وأقل موافقة على النهج العام. وكان يتفهمها ويوافقها في كثير من الأحيان. قالت له مرة:

– لقد فاضت الثورة بعيداً عن نهرها الحقيقي. وباسم المحافظة على الثورة بدأ يغيب عن الأبصار هدف الثورة الأصلي »[١١].

لا توغل الرواية في تحقيق استقلالية مريم، ولكنها ما تفتأ تجعلها ذات مكانة مرموقة عند الفلسطينيين مها تكن درجتهم في سلم المسؤولية. بل إنها تحاول القول إن صلاتها بالفلسطينيين لم تكن على شاكلة صلات الآخرين الذين يجرّون المقاتلين « إلى الصالونات ودهاليز الترف السياسي »[١٢]. ترى الرواية أن مريم تختلف عن أهل بلدها[١٣]، ولكنها تتمتع بنفوذ بينهم في الوقت نفسه، تشير إلى ذلك قضية خطف أبي شحادة، ومحاولة مريم مواساة زوجه، ثم استخدامها نفوذها في البحث عنه. وكأني بالمؤلفة تريد شيئين في وقت واحد: تريد القول إن اللبنانيين الشرفاء توحدوا بالفلسطينيين في أثناء الحرب دون أن يتخلوا عن انتمائهم للبنان في جانبه المدان. ولعلها ترى في ذلك تعبيراً عن السواد الأعظم من اللبنانيين، ولكن السياق الروائي لا يعبر عن هذا الأمر تعبيراً واضحاً. ولعل رومنتية بطلة الرواية البادية في علاقاتها بالأشياء المحيطة بها، أو التي تتعامل معها، مقصودة لذاتها من حيث هي وسيلة المؤلفة للخلاص من الإشكالية العامة، إشكالية الإنحياز إلى المقاومة وإدانة بعض الجوانب اللبنانية. ولهذا السبب لا تبدو في الرواية أية شخصية واضحة مميزة. فمريم في تناقض آرائها وفي خلوصها إلى الصمود، وفي علاقاتها بابنها وخدمها وجوارها وحيها، لا تبدو شخصية روائية مقنعة، تبعاً لتناقض موقفها الرومنتي من الحرب الدائرة حولها. لم تستطع التعبير عن خوفها، بل كانت تقول بشكل مباشر إنها خائفة. لم تتوصل إلى الإحساس المدمر باقتراب الموت، بل كانت تخبر القارىء بذلك. ويكاد الأمر ينطبق على ابنها، فهو طفل حيناً وشاب حيناً آخر، ولكنه في الحالتين خال من الملامح الخاصة. والأسطة الخادم السوداني الذي جرت الرواية على اعتبار منزل مريم قلعته ليس له دور سوى التعبير عن مراد المؤلفة من أن شخصيتها تتعاطف مع الفقراء وتخلص لهم وتحبهم وتتوحد بهم. إن « الأسطة » حجر شطرنج كمحمد وأبي سمير وملكة وابن مريم... إنهم شخصيات ورقية يختلفون في نوعية « الغراماج » عن مريم، ولكنهم مثلها في تسطّح العاطفة، وأحادية الجانب، وغياب الملامح.

أين الحرب التي تهدد الذات؟ وأين الذات المهددة؟ وأين ردود الأفعال؟... لنقل إن الرواية هي المنزل الأبيض، وإن المنزل الأبيض هو الرواية بشخصياتها وأحداثها ودلالاتها الحقيقية والرمزية.. ولكن، أية خصوصية يحملها هذا المنزل حتى يغدو قادراً على الترميز، حتى يكون رمزاً للبنان؟ ماذا فعلت الحرب بسكانه من حيث آراؤهم وتطورهم الانفعالي، ومن حيث هم بشر يعانون ويتألمون، يخافون ويحسون الدمار في دخيلتهم قبل إحساسهم به في الأشياء المحيطة بهم... تقول الرواية: « علمتنا إصابة أدهم أن نجعل زيارة الجرحى في المستشفى من مهماتنا بين الفينة والأخرى، وبما أن البنزين كان المؤونة

(٧) نفسه - ص ٦٧.

(٨) نفسه - ص ٩٣

(٩) نفسه - ص ١٠٠ والواضح أن السياق الروائي يحاول التعبير عن توحد مريم بمنزلها

(١٠) تشير الرواية إلى أن أهل مريم حاولوا إقناعها بمغادرة المنزل ولكنهم أخفقوا، فقد اقتنعت واستراح أبناؤها - الرواية - ص ٧١

(١١) قلعة الأسطة - ص ٦٦

(١٢) نفسه - ص ٣٠.

(١٣) انظر الرواية - ص ١٩.

الوحيدة المتوفرة لدينا لقلة استعمالنا للسيارة.... » كيف يقبل السياق الروائي منزلاً لا يستطيع سكانه البقاء في طابقه العلوي خوف القذائف ورصاص القناصة، أن تكون لديه سيارة سليمة يستعملها أصحابها في الذهاب إلى المستشفى.. كيف تبقى السيارة سليمة والبيت يتهدم شيئاً فشيئاً. بل كيف تستخدم مريم السيارة في زيارتها للمستشفى وحين يغمى على ابنها تعود مسرعة على قدميها دون سيارة لأنها لا تستطيع العبور خوفاً من رصاص القناصة؟... كيف يقبل السياق تأكيداً مستمراً على التعاطف والتوحد مع الفلسطينيين ثم تكون إصابة أدهم هي السبب في جعل الأسرة تلتفت إلى عيادة الجرحى الفلسطينيين؟... إن تناقضات السياق حول المنزل الأبيض لم تستطع رفعه إلى مستوى الرمز، وإن الأسلوب الإنشائي الرومنتي - الشاعري حيناً - كان عاجزاً عن إيصال المنزل إلى هذا المستوى الرمزي. بل إن تعاقب ضمير الغائب فضمير المتكلم بين فصول الرواية لم يكن قادراً على خدمة الإيقاع العام للمنزل، والإيقاع الخاص بمريم. كانت المؤلفة تستخدم ضمير الغائب في فصل، ثم تستخدم في الفصل التالي ضمير المخاطب (نا الدالة على الفاعلين)، في محاولة منها لوصف المنزل وأحوال سكانه، ووضع المنطقة والحي، ثم تترك لضمير المتكلم فرصة وصف ما يتم داخل البيت، أو تتركه يوضح دخيلة مريم ورؤيتها للأمور وإحساسها بها.. وقد كان لهذا التعاقب حسنة واضحة هي جعل المؤلفة تبتعد عن موقف الروائي العالم بكل شيء، بحيث تم وصف ما يقع تحت الحس مباشرة، أو ما تسمعه الشخصية وتراه، ولكنه - من جهة ثانية - تمسك بالسرد الوصفي الإنشائي فابتعد عن الحيوية والحركة، لا سيما وأن دور الحوار فيه ضئيل باهت، وأن الإحساس بالزمان والمكان مفقود فيه، بحيث أن « الخلاصة » - وهي إحدى تقنيات السرد البارزة في الرواية - لم تكن قادرة على إبراز إيجابيات الرواية في غياب الزمن عن أداء وظيفته، وفي حالة اللجوء إلى تحليل أبطال الرواية من الخارج، وإصدار الأحكام على مواقفهم وعواطفهم وأفكارهم وحشرهم في دائرة الشخصيات المسطحة.

وأخيراً، فلعل الظاهرة اللغوية أكثر بروزاً في عمليات ضبط الأسلوب الرومنتي.. فهي لغة عواطف قبل أن تكون لغة رواية. قد تكون صالحة للنثر الفني الذاتي الوجداني، ولكنها بعيدة كل البعد عن أسلوب الرواية في وضوحه ومقدرته على الوصول إلى القارىء. ولعل محاولة المؤلفة تجويد أسلوبها يتناقض كلية مع قائمة الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية التي تعج بها الرواية. وها هي نماذج منها: كيف نفذ من رصاص القنص [تريد: نجا] - تتوقف - نتجمع - توضيب - كمش - التعيس - بواسطة - ندلق - الغير - دع الرجل يستريح - اتركني أستريح - استأخرتك - كباية - تطمينات - يا ابني - الحنونة - حاجيات - العائلات - تتأرجح - أمام نفس الضيوف [استخدام: نفس - كافة، خاطىء في الرواية كلها] - أثناء - في سنة الثامنة والأربعين - أثرت عليك - بدون - صدفة - إنسانة - سيعيقها - يلتقي بغادة - يعرفون بعضهم البعض - الزبالة - يطرقع - بقجة - بلاش - شعر أهاليها - حبه إلى - بلاط [تريد: دونه] - بردانة - مشاكل - إنشاء الله - فشلت - يتصلح - يتعوض - لعنده - صبورة. هذه بعض خطيئات النص الروائي، وهي تشير إلى أن ظاهرة الضبط اللغوي تخالف المنحى الرومنتي الذي جعلته المؤلفة ثوب الرواية البارز.

إن رواية « قلعة الأسطة » تعبير غير ناضج عن الحرب الأهلية اللبنانية، ولكنها تكتسب أهميتها من وجهة النظر التي تمثلها، أعني الحرب من وجهة النظر اللبنانية، تلك التي يحمل الأفق الروائي العربي ميلادها، بحيث تكتمل الدائرة الروائية الخاصة بالحرب اللبنانية.

صدر حديثا

روايات وقصص

سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب